بحث فى الموسيقى الشرقية

للأستاذ نقولا الحداد

الموسيقى: فلسفة وعلم وفن.. فهى إذن بنت الطبيعة والفكر والاجتماع، فلا بدع أن يعنى بها الفلاسفة والعلماء وأصحاب الفن ويضعوا لها قواعد وقوانين، بل هى أولى من كل ظاهرة كونية للدرس والتقرير والاستنباط

والصوت منذ القديم من قبل التاريخ مستند الإنسان فى التعبير عن عواطفه وميوله وآماله. هو أصدق آلة للتعبير. فبالأحرى أن تكون الأنغام والألحان أداة لتفسير ما يطرأ على النفس من شعور داخلى. ولا بدع أن يتصدى علامة فى الأنغام لشرح القوانين الموسيقية من جميع نواحيها، ويبحث البحث الفلسفى فى شؤونها، ويدرس الدرس الفنى للأنغام والألحان والتطاريب

لا بدع أن يتصدى لهذا البحث العلامة الأستاذ ميخائيل خليل الله ويردى فيؤلف كتاب فلسفة الموسيقى الشرقية فى أسرار الفن العربى. ولعله من قبيل التواضع لم يقل فلسفة الموسيقى الشرقية والعربية على الإطلاق وكل ما يمت للموسيقى بسبب. وقد ملأ فى هذا البحث نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير، وتواردت إليه رسائل من كبار العلماء وكبار الساسة وكبار الكهنوت من أمم مختلفة من الشرق والغرب مثنين على كتابه. وكان أهم هذه الرسائل رسالة من العلامة العظيم جوليان هكسلى مدير مؤسسة اليونسكو العالمية يشكر له فيها مجهوده البالغ فى إخراج هذا الكتاب الفذ، ويعده فيها أنه متى بلغ مشروع اليونسكو أشده سيعمل على ترجمة كتابه هذا إلى اللغة الأكثر شيوعا لكى تكون فوائده واسعة النطاق

وقد رد المسيو جيم توريس جوده المدير العام لمنظمة اليونسكو على كتاب المؤلف المحبوب بنسخة من الكتاب الذى نحن بصدده وعلى نسخ من محاضراته عن الموسيقى فى بناء السلام العام يبلغه فى رده أن المؤسسة العالمية لليونسكو مهتمة الاهتمام التام الذى أثاره عمله لديها. وقد رشح الأستاذ خليل الله ويردى لجائزة نوبل، واهتمت هذه المؤسسة بهذا العمل الجليل، ووعدت بالالتفات الذى يستحقه عمله، وهى ترى أن ترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية يسهل عمل المحكمين. وحبذا لو تصدى أحد الأدباء للترجمة وخابر الأستاذ خليل المؤلف فى هذا الشأن واتفق معه على الترجمة. ولا ريب أن ترشيح اليونسكو للمؤلف لدى منظمة نوبل هى خطوة شريفة قد تؤدى إلى الحصول على الجائزة التى ليست مقصودة بالذات من عرض الكتاب على المؤسسة؛ بل المقصود هو الحصول على هذا الشرف الكبير الذى سيتمتع به العالم العربى كله

الموسيقى العالمية

بحث الأستاذ خليل الله ويردى فى الموسيقى عند جميع الأمم الغربية والشرقية الدنيا والشرقية القصوى. وطرق الموضوع من جميع أبوابه ولم يترك فيه شاردة ولا واردة. وأسهب جدا فى السلالم الموسيقية على اختلاف أنواعها وأوطانها، لأن السلالم هى نوى الموسيقيات وهى ينبوع الألحان وروح التطريب والطرب

السلم الموسيقى (أو الموسيقية) ليست غريزة طبيعية فى أصل هذا الفن البديع الجميل، بل هى نزعة وطنية أو إقليمية. وليست من حتميات الطبيعة، إلا أن للسلم طرفين: قراراً وجواباً، وكل منهما ضد الآخر. هذا ومن سنن الطبيعة أن يكون بين القرار والجواب تجاوب أو اتفاق فى الاهتزازات الهوائية الصوتية بحيث يكون الثانى مضاعف الأول فى عدد الاهتزازات، وبين الطرفين سلم يتدرج فى نغمات يسميها بعض الموسيقيين مقامات. ويمكن أن يصعد السلم من جواب لجواب أعلى فيصبح الجواب الأول قراراً للجواب الأعلى وهكذا دواليك. فيترقى السلم إلى سلالم متوالية كل منها جواب لما تحته وقرار لما فوقه. وقد ينتج من هذا الارتقاء سبع سلالم على الأقل كما هو الأمر فى البيانو الاعتيادى

وتختلف النغمات أو المقامات باختلاف ذبذبات الوتر أو اهتزازاته ، أو اهتزازات عمود الهواء المنفوخ فى القصبة أو أية أنبوبة موسيقية حين تعزف أو تنقر . والشىء الطبيعى فى درجات السلالم هو أن ذبذبات أية درجة هى مضاعف ذبذبات الدرجة التى تقابلها فى السلم الذى تحته . وفى جميع الموسيقيات المعروفة فى الغرب والشرق السلم ذو السبع درجات الأصلية، وقد يتفرع منها أجزاء درجات كأنصاف وأرباع وأعشار وثلث كما سيأتى بيانه . وللغناء عند القبائل الهمجية سلالم بسيطة جدا قد لا تبلغ سبع درجات حتى ولا أربع درجات . والله أعلم

ولا أدرى إن كان تقسيم السلم إلى سبع درجات تقسيما طبيعيا. ولعله طبيعى لأن للنور سلالم موجية على مثال السلالم الموسيقية ، وكل سلم نورانى هو جواب لما تحته وقرار لما فوقه إذا شبهت هذا بذاك . لأن فى الطبيعة إشعاعا كهرطيسيا ذا تموجات مختلفة الطول والمدد فى الوقت . وهى تموجات أثيرية على حد تموجات الهواء الصوتية والموجات الكهرطيسية طبقات ؛ وكل طبقة هى مضاعف الطبقة التى تحتها فى الموجات

ولنا أن نسمى كل طبقة كهرطيسية سلما كالسلم الموسيقى . وفى الطبيعة ستون سلما كهرطيسيا . ولكننا لا نرى منها إلا سلما واحداً هو سلم النور فقط والباقية اكتشفناها بالآلات المختلفة . ولا نعرف سلم النور إلا بألوانه الرئيسية السبعة من الأحمر (وهو الأسفل) والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى (وهو الأعلى) ، وموجاته هى ضعفا موجات الأحمر ، ولكن طول موجة الأحمر هى مضاعف طول موجة البنفسج ، ولهذا يسيران معا فى وقت واحد . على أننا لا نراهما إلا لونا واحداً هو الأبيض ، ولا نراه إلا منحلا إلى ألوانه السبعة إذا نفذ فى زجاجة البشور أو فى قطرات قوس قزح . هذه الألوان السبعة ليست فى الموجات الاثيرية بل هى فى خليات أدمغتنا البصرية ، فالخلية التى تنفعل من ذبذبة إحدى الموجات تصدر اللون المطابق لها . ولا نرى ما فوق البنفسجى وما تحت الأحمر إلا بواسطة آلات بصرية ، كالنور الذى فوق البنفسجى، والنور الذى تحت الأحمر . وكذلك الأشعة السينية (أشعة رنتجن) . فبين الصوت والكهرطيسية تشابه قريب فى عدد الدرجات السبع . فى كليهما هذا العدد ٧ هو شىء طبيعى على الرغم من أن بين الدرجات سواء فى الصوت أو فى النور أجزاء درجات أخرى لا تحصى ، وهى سر تعدد الألوان كما هى سر تعدد الألحان ، ويظهر أن الذين اتفقوا على السبع درجات فى سلم صوتى أو نورانى رأوا أن هذا الرقم مقدس ، لأن الله خلق فيه العالم واستراح فى اليوم السابع

الأنصاف والأرباع

المعروف فى جميع الموسيقيات الغربية والشرقية أن للسلم سبع درجات يعتبرونها أصلية ، ويتفرع منها على قولهم أنصاف ، وفى الموسيقى الغربية أرباع ، وربما أعشار أيضا . وفى اليونانية ثلث . والحقيقة أن الدرجات ليست درجات متساوية ولا أنصافها حقيقية والأرباع كذلك . وإليك البيان :

اهتزازات الأنصاف

٥١ ٥٧ لا نصف لها ٦٨ ٧٦ ٨٢ لا نصف هنا

دو ري مي فا صول لا سى دو

اهتزازات السلم الأدنى ٢٤ ٢٧ ٣٠ ٣٢ ٣٦ ٤٠ ٤٥ ٤٨

« « الأعلى ٤٨ ٥٤ ٦٠ ٦٤ ٧٢ ٨٠ ٩٠ ٩٦

الفروق بين الدرجات الأصلية والأنصاف

٦ ٦ ٨ ١٠ ٦

فى الفلسفة الطبيعية Physics ذبذبات أو اهتزازات درجات السلم الأصلية منحطة إلى أسفل سلم الاهتزازات فى الثانية ، تتراوح الفروق بينها بين ٢ و ٥ كما رأيت فيما تقدم . وهو أمر يدلك على أن الدرجات غير متساوية فى الارتفاع والانخفاض وليست هى أنصافاً كما يزعمون . هذا السلم مدون فى جميع كتب الطبيعيات لأنه هو هو بعينه فى كتابين لمؤلفين أمريكيين مختلفين فى الناحية . ولا أظن كتب الطبيعيات فى أوروبا تختلف منهما من هذا القبيل

هذا السلم هو أوطأ سلم يمكن أن يسمع . ولا أدرى إن كان ذا وقع موسيقى فى الأذن إذا عزف . ولكى نرى نصف الدرجة عدداً صحيحاً نزلنا إلى السلم الذى هو فوقه . ومعلوم أن اهتزازات درجات السلم الأعلى مضاعف اهتزازات درجات السلم

الأوطا كما رأيت فى الجدول هكذا ترى فى البيانو مثلا ليس بين « مى » و « فا » إصبع أسود ولا ترى بين « سى » و « دو » الأخرى (الجواب) إصبع أسود، وأمابين بقية الأصابع الأخرى البيضاء أصابع سوداء وهى ما يسمونه أنصاف درجات وما هى أنصاف، كما ترى أن الفروق بين الدرجات الأصلية البيضاء ليست متساوية هى ٦ و ٤ و ٨ و ٨ و ١٠ و ٦ فى السلم كله، ولا أدرى كيف يعتبرونها أنصافا . على أن الذين يشدون أوتار البيانو أو يدوزنونها يعتمدون على السماع لأن أوتار أعصابهم السمعية تدوزنت على سلم البيانو أو السلم الأفرنكى

وكذلك الذين يدوزنون الآلات الوترية العربية ، العود والكمنجة والقانون ، يعتمدون على آذانهم كما يعتمدون عليها فى العزف من غير اعتماد على علامات (نوتات) ، وهى مهارة عجيبة مدهشة لأنهم يعزفون جميع الألحان من غير الاستعانة بنوتات . وجل ما يحتاجون إليه فى الدوزنة هو إما صفارة تصدر صوت نغم واحد يعتبرونه درجة (دو) ويجرون عليه فى ضبط سائر الدرجات اعتماداً على آذانهم أو يعتمدون على أداة معدنية ذات شعبتين فيقرعون الشعبتين فتصدران صوتا يحسبونه درجة دو

وأما فى ضبط أبعاد الدرجات بعضها عن بعض (وأعنى ضبط اهتزازاتها) فقد اعتمد الموسيقيون العلماء على قياس الوتر المشدود بحسب طوله، فاعتبروا الوتر الذى طوله متراً إذا عزف كان صوته دو . فإذا أمسك فى وسطه تماما كان صوت الذى يصدر من نصفه دو أخرى هى جواب الدو الأولى، ثم يقسم النصف إلى درجات حسب اصطلاحهم. وكان عند اليونان آلة لقياس الصوت تسمى مونوكورد أى ذات الوتر الواحد . ولا يخفى أن لمقدار الشد حسابا لأن الوتر كلما اشتد ارتفع صوته، لذلك ترى أن السلالم غير متماثلة إلا فى أن السلم الواحد هو قرار لما فوقه وجواب لما تحته على اعتبار أن اهتزازات الوتر فى السلم الواحد مضاعف اهتزازات السلم الآخر أو أنصاف الاهتزازات التى فوق السلم الآخر كما تقدم البيان

ولاستخراج عدد الذبذبات أو الاهتزازات فى كل درجة أو نصف درجة توجد آلة تسمى صونوميتر تسجل اهتزازات كل صوت . وقد استنبط الأستاذ رديع صبره (من بيروت) وكانت حرفته العزف على البيانو فى باريس مدة طويلة صونوميترا يسجل به اهتزازات الأصوات الموسيقية فى جميع درجاتها . وقد جاء به إلى مصر يوم كان المؤتمر الموسيقى منعقدا فيها . وكان غرضه أن يسجل به اهتزازات درجات السلالم العربية بجميع أنواعها وألحانها . ولا يخفى أن لكل لحن من الألحان العربية سلماً خاصا ، كالرست أو الحجاز كار أو الصبا أو النهاوند إلى آخره كما سيأتى بيانه . ولا أدرى إن كان الأستاذ صبره قد نجح فى هذا المشروع

السلام صلة — تقولا الحداد

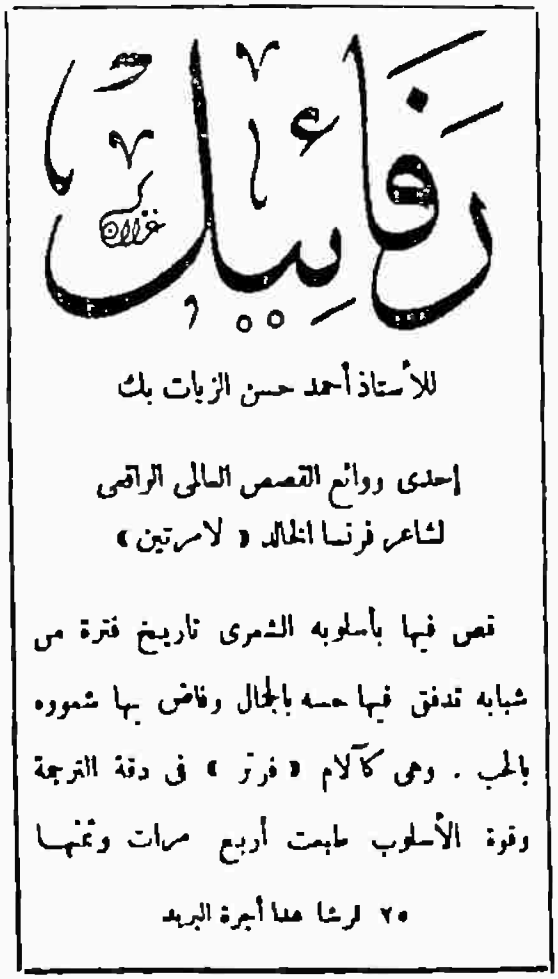

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمى الواقعى
لشاعر فرنسا الخالد « لامرتين »

قص فيها بأسلوبه الشعرى تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب . وهى كالام « فرتر » فى دقة النزعة وقوة الأسلوب طبعت أربع مرات وثمنها

٢٥ قرشا عدا أجرة البريد